الكتابة ليست صورا فوتوغرافية

هناك شيء ناقص في حياتنا نبحث عنه بالكتابة

المصرية زينب عفيفي: إذا كانت الرواية الرومانسية تهمة فأنا متهمة

الكتابة النابعة من الذات لها مآزقها الكثيرة مثل الشخصنة والعاطفية المفرطة وغيرها، لكن من ناحية أخرى لها ميزاتها حيث يمكنها أن تقدم نصوصا مفعمة بالأحاسيس، نصوصا حية تتجاوز التلفيق والاصطناع، فيما يبقى رهانها لكي لا تقع في الانغلاق هو مزجها بين الحقيقي والخيالي، على غرار كتابات الروائية والقاصة المصرية زينب عفيفي. في هذا الحوار مع "العرب" نتعرف على أهم خصوصيات الكتابة عندها.

محمد الحمامصي
كاتب مصري

يشكل إخلاص الكاتبة الروائية زينب عفيفي للقضايا الإنسانية التي تربط بين أفراد الأسرة والمجتمع وما يتفاعل فيهما من أحلام وطموحات وتناقضات، وأيضا إخلاصها لرؤى ذاتها وأفكارها وواقعها، وكذا لمعالجة عمق هذه القضايا بلغة راقية وأسلوب سلس وقدرة هادئة على سرد تفاصيل ذوات وحيوات الشخصيات، أهم محاور تميز روايتها وقصصها القصيرة، فهي خلال هذه الأعمال لم تذهب إلى الافتعال أو المزايدة لا على موضوعاتها التي تعالجها ولا على شخصياتها المختارة والمنتقاة من طبقات وفئات اجتماعية مختلفة.

وفي روايتها الجديدة الصادرة أخيرا عن الدار المصرية اللبنانية بعنوان "معك تكتمل صورتي" تواصل طرح رؤاها وأفكارها وتدخل منطقة إنسانية جديدة إنها منطقة الفقد والموت.

الرواية الرومانسية

بداية تؤكد عفيفي أن الفقد دوما يشعرنا بأن هناك شيئا ناقصا في حياتنا، نظل نبحث عنه طوال الوقت، وبعد عناء البحث نكتشف أنه باق في أعماقنا ولم يغادرنا، وفي رواية "معك تكتمل صورتي" ترفض البطلة دون وعي منها فكرة الفقد والموت، وأن من أحببناهم لا يموتون مثل كل البشر.

تدور الرواية حول توأم متشابه حد التطابق، إلى درجة أنه يصعب على الجميع التفرقة بينهما حتى الأب والأم نفسيهما، واحدة شخصيتها مرحة ومتفائلة تحب القصص والروايات والأخرى شخصية هادئة خجولة تحب العزلة والانفراد بنفسها وتهوى التصوير، تموت إحداهما في حادث سيارة، وتبقى الأخرى على قيد الحياة ولا يعرف الجميع من التي رحلت ومن التي بقيت، فقد عاشتا حياة متبادلة، لعبتا معا واختلقتا عوالم تخصهما وحدهما من الأسرار والحكايات، لم تكن أمهما نفسها تعلمها عنهما، كانتا تعشقان لعبة "الغماية" التي كان يفشل اللاعبون الآخرون معهما في التمييز بينهما. تشابه كبير جعل الجميع لا يعرف من التي رحلت ومن التي بقيت على قيد الحياة، إلا فاطمة التي كانت تعلم وترفض موت توأمها نصفها الناقص.

تكشف الكاتبة أن فكرة هذه الرواية راودتها كثيرا وعاشت معها، لأنها عاشت ما يشبهها، فقد ماتت توأمها لحظة الميلاد، وحينما كبرت وكانت تفشل في العثور عن أي شيء أحبته يأتي الصوت الداخلي ليخبرها أنه رحل مع توأمك، لكن الرواية تختلف تماما عن حياتها.

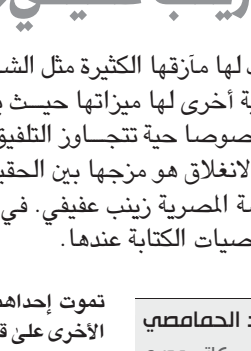

وتتابع "لا أحد يعرف عذاب الكتابة مثل الذي يريد أن يكتب عن أشياء حقيقية من الخيال، وبقدر بكارة الإحساس بقدر عذاب الانتقاء، الكتابة ليست صورا فوتوغرافية في الحياة مثل الصور الصحافية، الصورة الإبداعية تتزين بالبلاغة والعذوبة، ولا مانع أن تأخذ من الصحافة لغتها السلسة البسيطة والتي لا تعني السطحية، وإنما البساطة مع العمق، أو ما يحب أن يعبر عنه البعض بالأسلوب السهل الممتنع، أردت بشدة أن أكتب ليس ليراني الناس كاتبة فذة، وإنما أردت أن أكتب في هذا الوقت لأنني أريد أن أضع حدا لوحدتي رغم صخب الصحافة الذي أعيشه. أحببت أن أرى نفسي، وأرى وجهي الآخر الذي أكونه ولا أكونه، في الكتابة صنعت عوالم بأبطال أحببت أن يكون لهم وجود حقيقي في حياتي، أحادثهم ويحادثونني، ونصنع معا عالما آخر نعيش فيه ما لم يمكنا منه الواقع".

وترى عفيفي أنها في رواياتها "أهداني حبا" صنعت بطلا خرافيا، فارسا ثوريا، جاء من أجل تخليص البلاد من كل أوجه الفساد، وتقع في حبه امرأة لا يعلم عنها شيئا، أحبت فيه أفكاره ومبادئه، وتصورت أنه جاء من أجل تحقيق أحلامها، ولكنه يموت قبل تحقيق الحلم، فتقرر أن تكتب له رسالة تعترف له أنها لم تحب غيره، وأنها بحثت عنه في وجوه كثيرة ولم تجده، وذلك في سرد تاريخي لأحداث سياسية منذ السبعينات وما مرت به مصر من أحداث سياسية وثورات من أجل تحقيق نفس الأحلام والأفكار التي طالب بها الحبيب الأول من خلال القضاء على أوجه الفساد المختلفة متمثلة في مطالب الشعب المستمرة على مدى عقود طويلة.

> في ظل الزخم الإبداعي الناتج عن العزلة، والكتابات التي ملأت الساحة الأدبية صخبا، توارى صوت النقد

وتبين عفيفي أن نهاية الرواية تبقى مفتوحة رغم الإغراءات التي قابلتها في الحياة من استقرار عاطفي إلا أنها ظلت مرتبطة بالمبادئ والأفكار التي تركها لها البطل الأول من خلال أوراقه ومسودة رواية بعنوان "بعد مئة عام من الثورة".

وتضيف "الرواية وإن حملت عنوانا رومانسيا 'أهداني حبا' فهي في حقيقة أحداثها ليست كذلك رغم وجود الخط الرومانسي فيها طوال الحكي. ولا أنكر أننا نعيش في حكايتنا الكاذبة وكأننا نحيا واقعا حقيقيا نتمنى ألا ينتهي، ولكنه ينتهي مهما طال أو قصر العمر، فالحكايات وإن بدت متشابهة فهي مختلفة باختلاف أبطالها وعوالمها الخيالية، التي نحلم أن تعبر عن بعض من أنفسنا وإن لم نكن نحن بالفعل. وحدها الكتابة هي التي أضاءت أجزاء مجهولة من الوجود الإنساني، تستحق البقاء. إنها ثورة على الصمت، وصخب محبب في ظل عالم نصنعه بمفردنا في حضور أبطال رواياتنا".

وبعد ثلاث سنوات من رواية "أهداني حبا" صدرت لعفيفي رواية "أحلم وأنا بجوارك"، والتي تدور بين أم كفيفة تعشق القراءة وابنة وحيدة رفضت الزواج كي تقرأ لأمها الروايات التي كانت تعيش مع أبطالها في الخيال، ثم أصبحت كل منهما لا تستطيع الحياة دون الأخرى إلى أن يظهر في حياتهما كاتب حقيقي تقع في حبه الابنة، ولكن الأم تعرف حقيقته المزيفة وروايته الكاذبة التي أبهرت ابنتها، لتكتب الأم رواية مضادة تحكيها وتكتبها الابنة.

وتقول عفيفي "إذا كانت الرواية الرومانسية تهمة فأنا متهمة مع سبق الإصرار والترصد، وإذا كانت عناوين روايتي مراوغة عن مضمون الرواية، فهذا بالاتفاق بيني وبين دار النشر التي أؤمن بأنها تعرف جيدا كيف تسوق لمؤلفيها، وتحافظ على مستوى إنتاجها وإنتاجهم".

الكتابة والأسئلة

عن سؤال الكتابة، لماذا تكتب؟ تجيب عفيفي "لا أستطيع أن أفعل شيئا آخر، وأتصور أن الكتابة في حياتي وجدت كي أعيش وأتنفس وأحب وأغضب وأثور، كل هذه الانفعالات لولا وجود الكتابة في حياتي لكانت حياتي مظلمة، إنني أكتب لأنني أحب الكتابة، لأن هناك أشياء تثير دهشتي، أكتب لأن الكتابة فعل حياة؛ وأنا أحب الحياة، ومن يحب لا ينتظر مقابلا لحبه، ومن حسن حظي أن مهنتي الصحافة، فأكتب وأتقاضى أجرا، لكن كتاباتي الروائية أكتبها كي أشفى من أوجاعي، كي أخرج من عالمي الضيق إلى عالم أرحب دون انتظار أي مقابل، الكتابة في حياتي تبقيني على قيد الحياة وهذا يكفيني".

وتشير عفيفي إلى أن الثقافة الآن ليس في مصر وإنما في العالم تواجه محنة التفاعل الفعلي، بسبب الإجراءات الاحترازية المشددة التي فرضها فايروس لا يرى بالعين المجردة، ولكنه استطاع أن يجمد العالم ويعزله، ويمكن القول إن لها جانب إيجابي فقد فرضت عزلة إجبارية على المؤلفين والمبدعين، فأبدعوا في كتابات جديدة من جانب، ومن جانب آخر أحدث ذلك نوعا من الفوضى في الكتابة. وساعدت وسائل التواصل الاجتماعي على انتشار هذه الظاهرة.

وترى أنه في ظل هذا الزخم الإبداعي الناتج عن العزلة، والكتابات التي ملأت الساحة الأدبية صخبا، توارى صوت النقد، وضعف، ليس لعدم أهميته، وإنما لعدم قدرته على مواجهة هذا الكم الهائل من الكتابات الجديدة، وأصبح كل صاحب صوت عال على السوشيال ميديا ناقدا، واختلطت الأدوار، وأصبح الشاعر ناقدا وروائيا وشاعرا، وأصبح الروائي ناقدا ومنظرا، واختفى الناقد الحقيقي صاحب النظريات النقدية التي تتبنى الإبداعات الجديدة وتحكم على الأعمال الإبداعية بحيادية.

وتختم عفيفي أن "الإبداع في كل صوره لا بد أن يحمل رسالة، أحيانا تأتي واضحة جالية، كالحرية والعدالة والجمال والحب، وهي أحلامنا جميعا في صور مختلفة، إلا أنني أتمنى أن يستشعر قارئي كل هذه الحالات دون رسائل مباشرة، يشعر بأنني استطعت أن أجيب على أسئلة بداخله لم تخطر على باله قبل أن يقرأني".

أديبة عطية.. شاعرة سورية في قائمة نخبة سيدات أستراليا

دمشق - أديبة عبدو عطية أخذت من اسمها نصيبا، سائرة على درب اللغة والأدب لتصل غربتها بالوطن وتترجم ذكرياتها وأحلامها بشعرها وحروفها مكرسة قصائدها لسوريا وطنها الأم.

طبعت الغربة بصمتها في لغة أديبة المحملة بالشوق والحنين لوطن غادرته في ريعان الشباب وبقي ساكنا في حنايا قلبها، تتنفس عبره الحياة والأمل لتستجمع الشاعرة السورية المقيمة في أستراليا ذكرياتها في قصيدة أو نثر، ولتحمل في ما بعد اسم سوريا قضية تؤكد عبرها انتماءها لأرض الحضارة والثقافة والحياة التي تستعيد ملامحها في جل قصائدها عبر صوت أنثوي بصبغ التفاصيل والأماكن والمشاهد التي تكتبها.

مع انتقال أديبة ابنة القامشلي إلى المهجر عام 1977 بدأت تجربتها الأدبية والفكرية، وحققت انتشارا وشهرة بين أوساط أبناء الجاليات العربية عبر الملتقيات الثقافية، وساهمت من خلال ندوات ومحاضرات كثيرة في التعريف بسوريا وخصوصياتها وخاصة بما يجري فيها من أحداث وما تكتنزه من تاريخ عريق.

تميزت كتابات أديبة بالحس الأنثوي الأدبي واللغة البسيطة المباشرة والذي يظهر جليا في مدونتها الشعرية "قطرات الندى" الصادرة في مدينة ملبورن، أستراليا عام 2019 اجتهدت خلالها الكاتبة بتفجير طاقاتها لرسم صور شعرية جميلة مفعمة بالفكر الإيجابي والتفاؤل.

ويضم الديوان قصائد عن مشاعر النساء، الحب، الغزل ومقطوعات تستعرض الأوضاع في عالمنا العربي وما قدمه من ضحايا وشهداء في السنوات الأخيرة.

تقول الشاعرة "أنا من النساء العربيات، لا أريد أن أقول المتحررات، بل الواقعيات".

وترى عطية أن المجتمعات الشرقية تمارس كبت المشاعر ضد النساء، فإذا حاولت إحداهن كتابة شعر عاطفي أو غزلي فسرعان ما تلاحقها الاتهامات والإشاعات. ولهذا تسعى الشاعرة إلى التعبير عما يدور في قلوب النساء ووجدانهن.

وحول كتابة هذه المجموعة باللغتين العربية والسريانية، تصف الكاتبة اللغتين بأنهما أكثر عاطفية وثراء من اللغة الإنجليزية، ولكنها تفتخر بكونها مبدعة متعددة اللغات فتقول "أي لغة جديدة يتعلمها الإنسان تمثل إضافة لمعرفته".

وقد سبقت هذه المجموعة مجموعات شعرية أخرى ثنائية اللغة مثل "قمر على كتفي" و"همسات الفجر" المترجمان للغتين السريانية والإنجليزية.

وتذكر الشاعرة أنها حاليا بصدد إصدار كتاب جديد بعنوان "عربي سرياني" لجامعة بغداد كلية اللغات، قسم اللغة السريانية فاللغتان مكنتاها من أن تنقل بسلاسة مشاعرها وأن تكتب قصائدها بشاعرية أعلى وأن تكون أكثر صدقا مما لو اختارت أي لغة أخرى كما تبين.

ومن ناحية أخرى تقول "يجب أن تكون لدى الشخص رؤية لما يريد أن يفعل وسيصل إلى ما يريد"، بهذه الجملة تختصر عبدو مفهومها للحياة والإنسان معتبرة أن الطموح هو القيمة المضافة لحياة البشر وبها يمكن التميز والاختلاف.

أديبة التي كانت من بين قائمة نخبة سيدات أستراليا عام 2014 لم تكن فقط مبدعة في المجال الأدبي، بل استطاعت أن تحجز مساحة متميزة كسيدة أعمال ناجحة حصلت على العديد من الجوائز في أستراليا وأنشأت وكالة للسفريات والسياحة في أستراليا، كما عملت من غربتها في الإعلام وقدمت العديد من الأبحاث المهمة عن الأحداث في سوريا كمحاولة لتوضيح حقيقة ما يجري فيها أمام الرأي العام، وأنشأت موقعا على الإنترنت لتسويق كتبها وكتب زملائها من الكتاب والمفكرين السوريين والعرب ويقدم الموقع كتب تعلم اللغة السريانية إلكترونيا بشكل مجاني.

> المجتمعات الشرقية تكبت مشاعر النساء إذا حاولت إحداهن كتابة شعر عاطفي أو غزلي فسرعان ما تلاحقها الاتهامات

وحرصت عطية سابقا على زيارة سوريا كل عام تقريبا وكانت تقضي أغلب أوقاتها بالعاصمة دمشق التي تحتفظ بأجمل الذكريات عنها، قائلة "لا يوجد بلد في العالم يعادل جمال سوريا فعشقي لوطني لم تبدده الغربة ولم تختصره المسافات".

وإن كان كثيرون يكررون عبارة أن "الأدب سلاح"، فالعبارة تنافي الحقيقة حتى من باب المجاز، إذ الأدب لم يكن يوما سلاحا بل هو وسيلة من أجل التنوير، من أجل لفت العالم إلى ما يجري على الأرض من أحداث، وله قدرة أيضا على التغيير فالكلمات يمكنها إحداث فرق حتى في الجانب السياسي.

ونجح الكثير من الأدباء السوريين في الخارج رغم اختلاف الرؤى في أن يقدموا أنفاسا جديدة للأدب السوري ترسخ فيه التنوع والتجدد والانفتاح على الثقافات الأخرى، وهو ما يؤكد أهمية أدب المهجر.

وتقول عطية "الإنسان السوري الذي كان حاضرا في كل بقعة من العالم كان يؤكد تميزه وإبداعه وانتماءه لأرض الحضارة وهذا ما بدا جليا خلال الحرب وأخبار السوريين تملأ الصحف بإنجازاتهم ونجاحاتهم".

وتشير إلى أهمية وحدة النسيج السوري الاجتماعي رغم تنوعه وضرورة الحفاظ على الموروثات الثقافية والاجتماعية لتعزيز القيم الأخلاقية والعادات البناءة.

كاتبة محملة بالشوق والمحبة